جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة الثالثة

النثر العباسي

م/ الطبع والصنعة

أستاذ المادة: م.د سفيان عبدالواحد الجبوري

2025 م -- 2026 م

لم تَعُدْ قضية الطبع والصنعة قضية نقدية ومذهباً ادبياً إلا في العصر العباسي عندما تناولها النقاد في نتاج الشعراء بصورة عامة وشعراء البديع بصورة خاصة بوصفه الوريث الطبيعي للتكلف، ومن الجدير بالذكر أن النقاد لم يختلفوا في أمر الطبع قديمة ومحدثه ، وإنما وقع الاختلاف في أمر الصنعة منذ أن وجدت بواكيرها في الشعر الجاهلي وتحولت الى تصنع على يد بعض الشعراء المحدثين، وهو ما جعلهم يضعون حدا فاصلا بين ما يسمى شاعراً مطبوعاً ارتفع شأنه والأخر مصنوعا كان موضع النقد والتنكيل ؛ لتكلفه في شعره واخراجه إلى ما يبتغيه، فعندما يتحول الموقف إلى المحدثين تتوجه سهام النقد في الاتهام والتنكيل إلى فنهم المتصنع وذلك نتيجة التطور الذي احدثه الشعراء المحدثين في الجانب الفني ، فالطبع هو السجية التي جبل عليها الانسان وتأتي الصنعة لترسم العمل في اطاره الفني المتقن، فالصنعة اذن حذق وحرفة وبها يستطيع الصانع أن يستر اثر الفكر وملامح التصنع، حتى لكأن الطبع هو عماد العمل المقروء، ومن هنا نجد أن الذين استخدموا الصنعة فريقان الاول: اتقنها وقننها فزاد العمل بها ابداعا على ابداع والثاني اسر بها الى التعمل والتكلف.

وقد ذكر بشر بن المعتمر (210هـ) التكلف والصنعة بقوله: ((فإن ابتليت بأن تتكلّف القول، وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة، وتعاصى عليك بعد إجالة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك وسواد ليلتك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة وأن كانت هناك طبيعةٌ أو جريت في الصناعة على عرق)) ، فبشر يقف الى جانب الطبع وركز على فاعلية النشاط واستغلال الوقت المناسب لعملية الخلق الفني كما أكد الصناعة البعيدة عن التكلف.

وكان الأصمعى (216هـ): يقول: (زهير و الحطينة وأشباههما من عبيد الشعر، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين)، يريد أنهما يتكلفان اصلاحه ، ويشعلان به حواسهما وخواطر هما ، فالشاعر المطبوع عند الأصمعي هو الذي يقول الشعر عفواً على الخاطر دون أي مراجعة او تنقيح او تثقيف . ومقياس الطبع عنده عدم التساوي في الجودة . فالشاعر المطبوع هو الذي يكون في شعره الردى والجيد وهذا التفاوت هو علاقة الطبع المائزة عند الأصمعي ومن ثم وصف الحطينة بأنه عبد لشعره لا لشيء إلا لكونه وجد شعرا متحيزا منتخبا.. وفي خبر لأبي حاتم عن الأصمعي ايضاً أنه قال ((شعر لبيد كأنه طيلسان طبري إي أنه جيد الصنعة ولكن ليست له حلاوة)) ، فالاصمعي يشيد بالشعر المصنوع ويحكم له بالجودة الفنية في طابعه العام، بعكس المطبوع الذي يتفاوت بين الجودة والرداءة، أما الصنعة التي اقرت بالحرفة والعمل والممارسة فأنها قد وردت بمعنى العيب وقد أشار الى ذلك(النابغة الذبياني) بعدما علم بتقص شعره من الكمال فقال: ((دخلت يثرب فوجدت في شعري صنعة فخرجت منها وأنا أشعر العرب))، اي وجدت تقصاناً عن غاية التمام، وتجد التمام عنده بالاعتذار للنعمان بن المنذر بأروع بيت:

لئن كنت قد بُلغتَ عني خيانة　　　لمبلغك الواشي أغش واكذب

فإنك شمس والملوك كواكبْ　　　اذا طلعت لم يبد منهن كوكبُ

فهو يريد أن يقنع متذوق أشعاره بأنه أصبح مطبوعاً تاماً ويمكن سماع شعره. قريبا من هذا المفهوم يقول الجاحظ (255هـ): في حديثه عن عبيد الشعر الذين يصفهم بأنهم يغتصبون الالفاظ ويلتمسون قهر الكلام، وهم في رأيه اصحاب صنعه وتكلف وليسوا كالشعراء المطبوعين الذين تتدفق عليهم الالفاظ والمعاني بيسر وسهولة فيقولون الشعر ارتجالاً دونما إجهاد وفكر فيقول((لولا ان الشعر قد كان استعبدهم واستغرق مجهودهم حتى ادخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الالفاظ . لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهو أورهوا وتنثال عليهم الالفاظ انثالا)) .

وليس هذا معناه أن الجاحظ من دعاة التكلف في العمل الأدبي ، فأن خير الكلام عنده ما صدر عن الطبع وبعد عن التكلف ،ويؤكد ذلك بقوله: أحسن الكلام ما كان قليلة يغنيك عن كثيرة ومعناه في ظاهر لفظه فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزها عن الاختلال مصنوناً عن التكلف ، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة.

ويعلق ابن قتيبة 276هـ): على الطبع والتخلف بالصنعة الشعرية من خلال

إيراده نموذجا من شعر الفراهيدي على ابيات مطلعها:

أن الخليط تصدع فطر بدئك أوقع

ثم يعلق على هذا البيت فيقول : أنه شعر بين التكلف رديء الصنعة وسبب ذلك عنده بأن اشعار العلماء ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة ، ويعطي مثلا لذلك شعر الأصمعي وشعر ابن المقفع وشان الخليل بن احمد خلاف شعر الأحمر لأنه كأن أجودهم طبعاً واكثرهم شعراً، ويرى ابن قتيبة ايضا ان الطبع يختلف من شاعر الى آخر، فشعر الشاعر عند ابن قتيبة متفاوت فيحسن اذا وافقت رغبة الشاعر وإجادته ويقبح ويعتريه التكلف إذا جاء فيما لا يجيده الشاعر ويرغب فيه، او ان تجبره الظروف على قول شعر يفتقد الى العاطفة الصادقة كمصانعة ممدوح او مداراة سفيه ومن ثم فقد يكون للمتلقي جانب فهم في ابراز روعة الشعر المطبوع من عدمها..

ويعد ابن طباطبا (٣٢٢هـ) من أوائل من نظر في الشعر وقالوا في تثقيفه ودعوا الشاعر إلى التوقف والتأمل وتنسيق الأبيات ومراعاة حسن تجاورها والملائمة فيما بينها لتظم له معاليها ويتصل كلام مي ويخلو من الحشو، وعد الشاعر صاحب الطبع الموهوب لا يحتاج إلى صرف الجهد في معرفة مكونات العملية الابداعية فهي تأتيه طوعا، بعكس الشاعر الذي أضطرب عليه الذوق فلم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحدق بها حتى تصبح ملكة له، فالطبع هو الباعث الحقيقي على النظم، وتسانده في ذلك الصنعة التي تأتي من التعلم والممارسة والحذق في استيعاب المكونات الاساسية المشكلة للنص الشعري بما فيها من امتلاك ناصية اللغة والبراعة في الاعراب والرواية وجميع الادوات التي تدل على كمال العقل.

ويذكر ابو هلال العسكري(٣٩٠هـ) رأيه في كتابه الصناعين الذي أورده في لصنعة الجيدة إلى جانب الصنعة المتكلفة فيقول: لا يكون الكلام بليغاً حتى يعرى من العيب ويتضمن الجزالة والسهولة وجودة الصنعة، وقد افرد باباً خاصة في معرفة صنعة الكلام قائلا: إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك ، وتنوق له كرائم اللفظ وإجعلها على ذكر منك؛ ليقريب عليك تناولها، ولا يتعبك طلبها، والطبع عنده قول الشعر على السجية دون إجهاد للفكر او إتعاب للنفس وكيفما اتفق فيقول ((واما قرب المأخذ فهو ان تأخذ عفو الخاطر وتتناول صفو الهاجس ولا تكد فكرك ولا تتعب نفسك وهذه صفة المطبوع))، ويقول ضاربا أمثلة على الشعر المطبوع: " ومن السهل المختار الجيد المطبوع قول الشاعر:

صرفت القلب فانصرفا ولم ترع الذى سلفا

وبنت فلم أذب كمدا عليك ولم أمت أسفا

فالشاعر المطبوع عند هؤلاء هو الذي لايجد كبير عناء في قرضه للشعر، والشعر المطبوع عندهم هو الذي يقال لأول وهلة دون معاودة او كيفما جاء.

ويقول القاضي الجرجاني(٣٩٢هـ): ((وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتعلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب ، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد ابياته))، وتكلم في كتابه (الوساطة) على تأثير المكان والطبع في رقة الشعر وجفائه ، ورأى أن البداية التي اثرت في خشونة الشعر وقوة أسره وصلابة معجمه ، وأن للحاضر فضلا في رقة الشعر وعذوبته وسلامته من الوعورة والجفاء ، وقد تنبة الجرجاني إلى أن الطبع والخلقة اثرا في رقة الشعر وجفائه ، وأن سلاسة اللفظ تنبع سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلق من ذلك قول الشاعر :

سيف الإمام الذي سمَتُهُ هَبَّتُهُ لمَا تَخَرَمَ أهلَ الكَفْرِ مُخْتَرَمَا

إنّ الخليفةَ لمَا صَالَ كنتَ له ... خَلِيفةَ الموتِ فيمن جَارَ أوْ ظَلَمَا قَرَّت بقُرَّانَ عينُ الدين وَاشْتَتَرَت ... بالأشتَرَينِ عُيونِ الشَرْكِ فَاصطُلما فعبد القاهر لا يرى في اشعار ابي تمام المحفوظة في التجنيس الا زخارف لفظية مقصودة لذاتها دون اي معنى شعري أخر وهذا الشئ يراه تكلفا ومنافيا لصنعة الشعر الحقيقية وربما استقبح عبد القاهر تكلف البديع عند الشعراء لان ذلك يصرفهم عن الاهتمام بمعانيهم.

والمطبوع عند ابن رشيق القيرواني هو ((الأصل الذي وضع اولاً وعليه المدار))، وحدد المطبوع عنده هو الذي((وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة ومن غير قصد ولا تحمل ، لكن بطباع القوم عفواً ، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل ، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى قالوا عن زهير أنه صنع الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف ، يصنع القصيدة ثم

يكرر نظره فيها ، خوفاً من التعقب ، بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أولية)) ، وقالوا عنه: انه صاحب اصدق بيت وامدح بيت وأبين بيت ونذكر له أصدق بيت:

ومهما تكن عند أمري من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ويقول عن الشعراء والأدباء: وقد استطرفوا من الصنعة البيت والبيتين في القصيدة ليستدلوا بذلك عن جودة شعر الشاعر وصدق حسه وصفاء خاطره ، فأما أذا كثر ذلك عنده فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وإيثار الكلفة ويقول الأمدي: أن شيوخ أهل العلم زعموا أن صناعة الشعر وغيرها من سائر الصناعات لا تجود وتستحكم إلا بأربعة أشياء هي جودة الآلة واصابة الغرض المقصود وصحة التأليف والانتهاء إلى تمام الصنعة من غير نقص فيها ولا زيادة عليها، وقد قالوا ((الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر اصناف العلم والصناعات)) وما معرفة الشعر إلا معرفة بدقائق الصنعة الشعرية ، وهذه المعرفة ليست مبتذلة لكل الناس وإنما يعرفها من دفع الى مضايق الشعر كما قرر هذه الحقيقة الشعراء أنفسهم .

أن الصنعة الشعرية خضعت للتطور الزمني واختلفت من عصر الى اخر نتيجة لاختلاف العصور والأذواق وقد حاول بعض الباحثين المحدثين أن يفرقوا بين الصنعة والصناعة فذهب الدكتور (شوقي ضيف) الى أن مذهب الصنعة والمصنعين يعتمد على الأناقة في التعبير الفني والميل الى الزخرف، وقد حاول ايضاً (الرافعي) أن يفرق بين الصنعة الشعرية عند الجاهلين ومن تابعهم من شعراء القرن الأول وبين الشعراء المولدين فقال:((إن المولدين لم يلتزموا سنن العرب بالوصف بل قلبوه الى التشبيه وبينهما فرق عند العرب ، وهو أن الوصف اخبار عن حقيقة الشيء والتشبيه مجاز وتمثيل لأنه مبني على أن يوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات اكثر من انفرادهما فيها))، ومن الحدود التي وضعها النقاد في الصنعة والصناعة قالوا أن الصنعة تكون في اللفظ وتكون في المعنى ، وهي في الألفاظ تعني الزخرفة المتمثلة في فن البديع من جناس وطباق ومقابلة وما إليها وفي المعنى تعني الصورة الشعرية التي ترتكز على عناصر التشبيه والتمثيل والاستعارة وغيرها من ضروب التصوير والتخييل.

ومن الجدير بالذكر أن الشعراء والأدباء فى العصر العباسى قد غالوا في ومن الجدير بالذكر أن الشعراء والأدباء في العصر العباسي قد غالوا في الصنعة واسرفوا فيها حتى أصبحت عند بعضهم غاية لتثبيت الفنية والاقتدار على تأليف الكلام البديع واتخذت مقياساً مهماً يقيس بها انتقاد جودة الأدب ، وهذا ما شجع بعض المحدثين إلى الإسراف في استخدام صنوف البديع وتتبعوا ما ورد في شعره من الصور البيانية والبديعية ونقدوه وأبانوا ما أحسن فيها وأظهروا ما لم يحالفه فيها التوفيق وأنكروا عليه بعضهم ما لم يذكره على غيره من الشعراء وعابوا عليه ومن ذلك قول ابي تمام:

لا تسقني ماء الملام فانني صب قد استعذبت ماء بكائي

أن بعض الأقدمين واكثر المحدثين ذكروا ابي تمام وصنعته ومسلم بن وليد وصنعتة وقالوا عنه أنه أولى من فتح الباب واسعاً لدخول الصنعة في الشعر العربي ابتداءاً من القرن الثاني الهجري ، وقد جعله الجاحظ تلميذا لبشار وابن هرمه وأضرابهما في هذا الفن ، وبما أن الطبع ضرورة يقتضيها النص الأدبي ليخرج في أحسن صورة والصنعة عظيمة الجدوى بعيدة الأثر لاعتمادها على العقل والذوق الفني والنقد الذاتي على أن تنطلق من تجربة حية أصيلة ، ومما سبق يمكن حصر اراء النقاد المتناولين لقضية الطبع في امرين:

اولا: إن مصطلح الطبع عند كل من الأصمعي و الجاحظ والعسكري يقصد به قول الشعر على السجية كيفما كان دون مراجعة او تنقيح ولا يشترط في الشعر المطبوع ان يكون جيداً في جميع انتاج الشعراء بل هو متفاوت حسب حالاته.

ثانيا: أن مصطلح الطبع عند كل من ابن قتيبة والأمدي يدل على الموهبة والملكة والسهولة في قول الشعر والاقتدار علية والابتعاد عن وحشي الكلام وتعقيد المعاني ، فمن سمات المطبوع عندهما اتصافه بالجودة والجمال، اما الطبع والصنعة فهما عاملان متفاعلان متكاملان لا غنى لأحدهما عن الأخر لإتمام الصورة الأدبية وإبرازها في أحسن ما يكون ، وقد قالوا رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحها رواية الكلام وحليها الأعراب وبهاؤها تخير الألفاظ .